المجلة الجزائرية للبحوث و الدراسات التاريخية المتوسطية–العدد الثالث– رمضان (جوان)1437 هـ–2016م
the Algerian journal of Researches and Mediterranean historical studies

القيادة المملوكية أوقات الكوارث البيولوجية في بلاد الشام
الطاعون نموذجًا (1250 – 1571م/ 648 – 922هـ)

الأستاذ الدكتور أشرف صالح محمد سيد
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة ابن رشد – هولندا

The Mamluk leadership in the Levant during biological disasters periods
Plague as model (1250 - 1571 AD / 648-922 AH)

Abstract:
The human societies in the era of the Middle Ages exposed to biological disasters which have had a significant adverse effects and lead to deadly results decimation and destruction of human power, paralyzing economic and population growth. Some regions of the Arab-Islamic state has seen phenomenon of an epidemic of plague in abundance during the medieval era.
This research aims to study the role of the state in the face of disaster and plague that struck the Levant almost fifty times during the Mamluk period (1250 - 1517 AD), and the study seeks to monitor these times, as far as trying to release the State's determination to help those affected by the plague and limit its effects on them, and to highlight the preventive health measures to avoid recurrence of such epidemics.
The researcher relied on historical descriptive analytical method, so he collects information and historical novels from sources and references. Then he analyzes this information in an objective, in the context of disaster management science literature.
The study found that the State of the Mamelukes succeeded in disaster management plague in the Levant through four basic stages: (mitigate the disaster - preparedness - confrontation - re-balance).

كانت الكوارث الطبيعية وبصورة خاصةً الكوارث البيولوجية من أخطر ما تعرضت له المجتمعات البشرية في حقبة العصور الوسطى، لما لها من آثار سلبية كبيرة ونتائج فتاكة تؤدي إلى هلاك وتدمير القوة البشرية وتشل نموها السكاني والاقتصادي. وقد شهدت بعض أقاليم الدولة العربية الإسلامية في حقبة العصور الوسطى ظاهرة حدوث وباء الطاعون بكثرة، ويهدف هذا البحث إلى دراسة دور الدولة في مواجهة كارثة وباء الطاعون الذي أصاب بلاد الشام

خمسين مرة تقريبًا خلال العصر المملوكي (1250 – 1517م)، ولا تسعى الدراسة إلى حصر ورصد هذه المرات، بقدر ما تحاول بيان حرص الدولة على مساعدة المتضررين من جراء الطاعون والحد من آثاره عليهم، وإبراز الإجراءات الوقائية الصحية لتفادي تكرار وقوع تلك الأوبئة. وقد اعتمد الباحث على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي، بجمع المعلومات والروايات التاريخية من خلال الرجوع إلى المصادر والمراجع، وتحليل هذه المعلومات بشكل موضوعي، في سياق أدبيات علم إدارة الكوارث. وقد توصلت الدراسة إلى أن دولة المماليك نجحت في إدارة كارثة الطاعون في بلاد الشام من خلال أربع مراحل أساسية هي: (تخفيف حدة الكارثة – الاستعداد والتحضير– المجابهة – إعادة التوازن).

أهمية البحث:

تؤدي الكوارث الطبيعية بشكل عام إلى القضاء على أعداد كبيرة من السكان، كما تسبب الدمار للمباني والمنشآت، وإذا كان الإنسان لا يستطيع منع الكارثة الطبيعية، إلا أنه يمكن التخفيف من مخاطرها. من هنا تأتي أهمية هذه الدراسة في إلقاء الضوء على جانب مهم يتعلق بإدارة الكوارث في العصر المملوكي، فالبحث في هذا الموضوع يمدنا بإضاءات عديدة عن الإجراءات التي تم اتخاذها قبل وأثناء وبعد حصول كارثة الطاعون في الشام، وبالتنسيق وبالتعاون المشترك على كافة المستويات، ابتداءً من القيادات المملوكية ووصلاً إلى المواطن.

منهجية البحث:

أُعِدّ هذا البحث وفق المنهج العلمي التاريخي الوصفي التحليلي، الذي يقوم على جمع المعلومات والروايات التاريخية من خلال الرجوع إلى المصادر والمراجع، وتحليل هذه المعلومات بشكل موضوعي في سياق أدبيات علم إدارة الكوارث لاستنباط الحقائق من عرض الوقائع التاريخية وما يترتب عليها من استنتاجات بالشرح والتفسير.

محاور البحث:

1– تلطيف / تخفيف حدة الكارثة.

2– الاستعداد والتحضير.

3– المجابهة.

1/3– الإعلام والتوجيه.

2/3– المجموعات التطوعية.

3/3– الخدمات الطبية.

4– إعادة التوازن.

الدراسات السابقة:

إن عدم وجود دراسة علمية سابقة ومتعمقة في موضع إدارة الكوارث في العصر المملوكي من منظور علم الإدارة، كان دافعًا للدراسة والبحث فيه أملاً في إضافة جديدة لمكتبة تاريخ الإدارة. لكن الحق أن مجال الكوارث في دولة المماليك بإطاره العام قد لفت اهتمام عدد من الباحثين، مما يدل على أهميته وأهمية البحث فيه، وكانت الدراسات القديمة والحديثة التي قُدمت حوله – في غالبها– تتناول حصر عدد مرات الطاعون في بلاد الشام وأنواعه وآثاره النفسية والسكانية والاجتماعية.

وكانت أهم تلك الدراسات ذات الصلة بالموضوع حسب إطلاع الباحث ما يلي:

1- يوسف غوانمة، "*الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي*".– مجلة دراسات تاريخية، العدد (13) تشرين الأول، 1983.

2- غادة بنت عبد الله بن عبد الرحمن القبلان، *البِيمَارِستَانَات: أوضاعها وآثارها في العصر المملوكي (دراسة حضارية)* .– الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2006. (أطروحة ماجستير)

3- فيصل عبد الله بني حمد، "*أثر الكوارث الطبيعية على الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر المملوكي*".– حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية – الحولية (28)/ 2008.

4- محمد حمزة محمد صلاح، *الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر (1097 – 1517م)*/ إشراف: خالد يونس الخالدي.– غزة: الجامعة الإسلامية، 2009. (أطروحة ماجستير)

5- مبارك محمد الطراونة، "*الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة 1382 – 1516م*".– المجلة الأردنية للتاريخ والآثار.– المجلد (4)، العدد (3)، 2010.

6- نافذ محمد عبد ربه الشوامرة، *الكوارث الطبيعية وآثارها في بلاد الشام في العصر المملوكي (1250 – 1517م)*/ إشراف: شوكت رمضان حجة.– فلسطين: جامعة الخليل، 2012. (أطروحة ماجستير)

7- محمد عطية أبو هويشل، *الأحوال الصحية والطبية في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي (1250 – 1517م)*/ إشراف: رياض مصطفى شاهين.– غزة: الجامعة الإسلامية، 2012.

تلك نماذج مهمة من الدراسات ذات الصلة المباشرة بموضوع هذا البحث من حيث بعض جزئياته مع اختلاف موضوع الدراسة ذاته، وبالجملة فقد استفاد الباحث من مجموع هذه الدراسات في مباحث الدراسة وتفصيلاتها. كما تجدر الإشارة هنا إلى؛ أن الباحث استخدم الفهارس الإلكترونية للجامعات العربية ومراكز البحث العلمي، بالإضافة إلى استخدام مواقع البحث على شبكة الإنترنت، وقد تَبيّن أنه لا توجد دراسات سابقة تناولت الموضوع على النحو الذي قُدم في هذه الدراسة.

مقدمة:

تمثل فترة دولة المماليك (1250 – 1517م) فترة حاسمة في تاريخ الحضارة الإنسانية بصفة عامة والعربية الإسلامية بصفة خاصة، فبها الكثير من الأحداث الكبيرة، كما أنها حفلت بالعديد من السلاطين العظام الذين تركوا لهم بصمات على صفحات التاريخ. لقد استطاع المماليك أن يشيدوا إمبراطورية ضخمة حققت وزنًا في السياسة العالمية في العصور الوسطى، [(1)] إلا أن عصر المماليك شهد حدوث أنواع مختلفة من الكوارث الطبيعية كالزلازل،

والسيول والفيضانات، وتساقط الأمطار، والثلوج، وهجمات أسراب الجراد، وظهور الفئران؛ بالإضافة إلى تفشي الأوبئة، والطواعين (الكوارث البيولوجية).

وقد تسببت هذه الكوارث في تراجع الزراعة والصناعة والتجارة، مما أدى إلى تدمير اقتصاد الدولة المملوكية،[2] وكان لحدوثها دور كبير في انعدام الأمن وعدم استقرار الأوضاع السياسية في المنطقة، [3] وترك حدوث بعضها آثارًا بالغة في تدمير وتخريب الكثير من المنشآت العمرانية، مما نتج عنه طمس واندثار الكثير من إنجازات الإنسان عبر العصور في مجال التراث الحضاري المادي والشعبي.[4]

فقد بلغ عدد الكوارث التي أصابت بلاد الشام خلال العصر المملوكي حوالي مائة وستًا وخمسين كارثة تقريبًا، منها اثنتان وسبعون كارثة تقريبًا حلت ببلاد الشام خلال العصر المملوكي الأول (**1250 – 1381**م/ **648 – 784**هـ)، وأربع وثمانون كارثة تقريبًا في العصر المملوكي الثاني (**1381 – 1516**م/ **784 – 922**هـ).

لقد أطلق المؤرخون القدماء كلمة الوباء على جميع أنواع الأمراض المعدية الفتاكة التي تصيب الإنسان أو الحيوان، وعلى الرغم من إطلاقهم كلمة وباء على الطاعون، إلا أن أغلبهم كان يدرك أن كلمة وباء أشمل من الطاعون، وأن الطاعون واحد من هذه الأوبئة. وقد عرّفت المصادر التاريخية وباء الطاعون حسب ما شاع عنه آنذاك، واصفةً إياه بأنه مادة سمية ينتج عنها بثر وورم مؤلم، [5] وأكثر ما يصيب المناطق الرخوة من الجسم، ويظهر عليه احمرار أو اسوداد أو اخضرار، ويبدأ خفقان القلب بالازدياد في كثير من الأحيان فضلاً عن التقيؤ، كما أنها صنفته على ثلاث أنواع كالطاعون الدموي (Septicemic plague)، والرئوي (Pneumonic Plague) والدبلي (Bubonic plague)، ويبدو أن الأخير أكثرها انتشارًا في حقبة العصور الوسطى. [6] فقد أصاب الطاعون بلاد الشام خمسين مرة تقريبًا، منها اثنتا عشرة مرة تقريبًا في العصر المملوكي الأول، وثمان وثلاثون مرة تقريبًا في العصر المملوكي الثاني.

آليات مواجهة الطاعون:

لقد كان للإنسان منذ عصور ممعنة في القدم جهوده ومحاولاته الهادفة لدرء أخطار الكوارث الطبيعية، واجتهاداته في التخفيف من حدة آثارها. إن الهدف الكلي لإدارة الكوارث هو تحقيق درجة استجابة سريعة وفعالة لظروف المتغيرات المتسارعة للكارثة بهدف درء أخطارها بإعداد التحضيرات اللازمة للكوارث المتنبأ بحدوثها، أو بالتحكم واتخاذ القرارات المصيرية لمواجهة الكارثة وتقليص أضرارها، وتوفير الدعم الضروري لإعادة التوازن إلى حالته الطبيعية.[7]

إن من أهم وظائف الدولة حماية ووقاية حياة مواطنيها وممتلكاتهم من المخاطر، والكوارث الطبيعية بألوانها المختلفة تتجسد فيها نُذر ومهددات لحياة الإنسان وممتلكاته ومقومات بيئته. لهذا تبرز ظاهرة الكارثة كتحد سياسي وإداري يستوجب التأمل والتبصر في الكيفية التي يمكن بها الحيلولة دون وقوع الكارثة، أو على أقل تقدير الحد من مخاطرها وآثارها التدميرية.[8] إن التاريخ يحدثنا عن كثير من الجهود الإبداعية، التي تمت في العديد من الحضارات بهدف درء الكوارث وتقليص أضرارها، وسوف نعرض فيما يلي للإجراءات/ الآليات التي اتخذتها الدولة المملوكية لمواجهة كارثة الطاعون في بلاد الشام:

أولاً: تلطيف / تخفيف حدة الكارثة:

وهي تمثل النشاطات التي تُتَخذ قبل الكارثة للحد من مسببات الكارثة أو التقليل من مخاطرها، وتخفيف حدة آثارها التدميرية في الحالات التي يصعب فيها درء الكارثة المتوقعة. [9] إن أهداف هذه المرحلة تتمثل في تغيير طبيعة

المخاطر المتوقعة، والحد من الآثار التدميرية، والتقليل من فرص تعرض الإنسان وممتلكاته للكوارث. [10] وذلك بتشييد وبناء ما يمكن أن يحول دونها وأن يخفف من حدتها، مثل المستشفيات، وتوفير الحماية للناس وممتلكاتهم في البيئات التي تهددها مخاطر الكوارث.

وقد اتخذت الدولة المملوكية التدابير اللازمة لتخفيف الأضرار المتوقعة من الطاعون، فأنشأت الدولة والسلطة الحاكمة البِيْمَارِستَانَات (دور المرضى) في جميع أنحاء بلاد الشام ومصر، والتي كانت تقدم خدمات طبية متنوعة، ومن الطبيعي أن يكون لها دور كبير في تقديم العلاج لمرضى الطاعون وغيره من الأمراض،[11] ولدينا إشارات متعددة أوردها المؤرخون تدل على أن حالات الإصابة بهذه الأمراض كانت تعالج بقدر الإمكان في هذه البِيْمَارِستَانَات. [12]

ولم تكن مهمة البِيْمَارِستَانَات قاصرة على مداواة المرضى، بل كانت في الوقت نفسه معاهد علمية ومدارس لتعليم الطب، يتخرج منها الأطباء والجراحون والكحالون، ومثّلت البِيْمَارِستَانَات مستشفيات عامة، تُعالج فيها جميع الأمراض والعلل من باطنية وجراحية ورمدية وعقلية.

ومن أشهر هذه البِيْمَارِستَانَات في بلاد الشام البيمارستان" القيمري" في الصالحية، والذي أنشاه الأمير سيف الدين أبو الحسن علي بن يوسف القيمري الكندي (ت. 1255م/ 653هـ)،[13] والبيمارستان "المنصوري" في مدينة الخليل، والذي أنشأه السلطان المنصور قلاوون سنة (1281م/ 680هـ)،[14] وأوقف عليه الأوقاف من الضياع والبساتين، واشترط ألا يمنع المرضى من دخول البيمارستان، ورتب للمرضى الأشربة، والسكر، والفراريج، والخيار البلدي.[15]

ولم يكن نواب البلاد الشامية أقل اهتمامًا في تشييد البِيْمَارِستَانَات لمعالجة المرضى؛ فالنائب سيف الدين تنكز الحسامي (ت. 1340م/ 741هـ) بادر إلى تشييد بيمارستان في مدينة صفد في سنة (1321م/ 721هـ)،[16] وبيمارستان الكرك وغزة والذي أنشأهما الأمير علم الدين سنجر الجاولي (ت. 1344م/ 745هـ)،[17] وبيمارستان الأمير سيف الدين أرغون الكاملي (ت. 1356م/ 758هـ)[18] في حلب،[19] وبيمارستان نابلس والرملة اللذين أنشأهما ناظر الجيش الأمير فخر الدين محمد بن فضل الله القبطي (ت. 1358م/ 760هـ).[20]

في الحقيقة؛ لقد كانت البِيْمَارِستَانَات أحد الميادين التي حازت على اهتمام الناس بكافة فئاتهم، وكان لها في ذلك العصر أهمية خاصة نتبينها في حاجة الناس الماسَّة إليها. ولعل أوضح دواعي هذه الحاجة ما شهده ذلك العصر من كثرة انتشار الأمراض والأوبئة والطواعين، ومن ثَمَّ كانت حاجة الناس إلى الأطباء والعلاجات بمختلف أنواعها أي حاجتهم إلى الطب بميادينه المختلفة ملحَّة وضرورية.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن متابعة المرضى وتتبع أحوالهم بعد خروجهم من البِيْمَارِستَانَات كان من الخدمات الإنسانية التي برز بها ذلك العصر، إذ أنه كان يصرف لكل مريض حين خروجه من البيمارستان كسوة ومال كي يستعيد قواه ولا تحل به نكسة المرض إن أرهق نفسه بالعمل بعد خروجه من البيمارستان معافى. [21] فيذكر أن السلطان الظاهر ططر (1421م/ 824هـ) كان في فترات تفشي الأوبئة والطواعين، ينفق الكثير من الأموال على المرضى، ويوفر لهم الأدوية والعلاج، واهتم كذلك في توفير الأكفان للأموات الذين لا مال لهم.[22]

وبناءً عليه؛ كان واضحًا شعور سلاطين المماليك بحاجة الناس الماسَّة إلى العلاج، ومعايشتهم لأوضاعهم الصحية والاجتماعية، وهو ما ترتب عليه اهتمام واضح في بناء البِيْمَارِستَانَات بأنواعها المختلفة، وتشجيع الأطباء وتسهيل

مزاولتهم لوظيفتهم، وعمل التنظيمات الإدارية والمالية اللازمة لها، والاهتمام بشئونها وأوضاعها كي تحقق الأهداف المأمولة منها في مجالات الرعاية الطبية ومواجهة سوء الأحوال الصحية.

وتجدر الإشارة أخيرًا إلى؛ أن سلاطين المماليك اهتموا بالمنشآت العلاجية المتنقلة التي تجوب القرى والأصقاع، فتنتقل من بلد إلى آخر في حال انتشار الأوبئة في المناطق النائية البعيدة عن حاضرة الدولة والتي تفتقر إلى وجود بِيْمَارِسْتَانَات ثابتة،(23) فكانت أشبه ما تكون اليوم بالقوافل الطبية العلاجية، والتي تجوب البلاد الريفية الخالية من الأطباء. زد على ذلك؛ أن الدولة المملوكية حرصت على الرقابة والإشراف على كل ما يتصل بالصحة من خلال نظام دقيق يُعرف باسم "الحسبة"، (24) حيث خول من خلال هذا النظام للمحتسبين الكثير من السلطات والصلاحيات للرقابة والإشراف على جميع ما يتعلق بصحة الإنسان.

ثانيًا: الاستعداد والتحضير:

وهي النشاطات الهادفة إلى تعظيم الإمكانات والقدرات لمجابهة الكارثة والتقليل من آثارها التدميرية. إن الهدف الأساسي من هذه المرحلة الإجابة على سؤال هام: ما هي المخاطر التي ينبغي التهيؤ والتحضير لمجابهتها؟ فيجب التحضير والاستعداد لكل الاحتمالات والمتغيرات، وهو هدف يستوجب نظرة متكاملة ومتسعة، إلى جانب قدرة لاختبار كفاءة وفعالية ما تم التوصل إليه من استعدادات.(25)

وقد اتخذت الدولة عدة إجراءات وقائية صحية لتفادي تكرار وقوع الأوبئة ومن ذلك: لما انتشرت الأمراض والحميات في الرملة والقدس في سنة (1273م/ 672هـ)، قامت الدولة بمحاولة إيجاد حلول لمعالجة آثار هذه الأمراض، فقامت بتجديد مياه الآبار التي كان يُعتقد أنها كانت سببًا في تفشي هذه الأمراض.(26) ولما حدث وباء سنة (1326م/ 726هـ) في بلاد الشام، عمدت الدولة إلى القيام بحملة تنظيف لشبكة المياه في مدينة دمشق، والتي كان يُعتقد بأن مياهها غير الصالحة للشرب والمليئة بالأوساخ كانت سببًا مباشرًا في انتشار الأوبئة والأمراض، وقد صرفت الدولة على إعادة تنظيف وصيانة هذه الشبكة حوالي ثلاثمائة ألف درهم.(27)

وفي سنة (1338م/ 739هـ) أمر نائب الشام تنكز (أبو السعيد سيف الدين تنكز) بإزالة الأوساخ في مدينة دمشق، وتنظيف مقاسم المياه وفتح منافذها، وعلى أثر هذه الخطوة زال ما كان يعانيه السكان من الأوبئة بسببها من قبل.(28)

ويبدو أن انتشار الأمراض بشكل متكرر جعل الناس يربطون بين انتشارها ووجود بعض الحيوانات مثل الكلاب، ففي سنة (1329م/ 729هـ) أصدر تنكز نائب السلطنة في دمشق أمرًا بجمع الكلاب من أنحاء دمشق، ومن ثَمَّ قتلها، وحرقها اعتقادًا منه أنها السبب في تفشي الأمراض، وعلى أثر ذلك قتل ألف كلب.(29)

ونظرًا لأن الوقاية لها دور كبير في حماية الإنسان من الأمراض، وحيث تُعَدّ النظافة رأس الوقاية لأن لها دور كبير في عدم إصابة الأبدان بالأمراض، لذلك سارع سلاطين وأمراء المماليك بإنشاء العديد من الحمامات في بلاد الشام من أجل توفير سبل النظافة الجيدة لأفراد المجتمع، بالإضافة إلى دورها كمنشأة صحية ساعدت في التخفيف من آلام وأمراض الناس.(30) وقد حفلت مدينة دمشق بالعديد من الحمامات العامة المقامة داخل المدينة وخارجها، والتي لاشك في أن لها دور كبير في شفاء أمراض كثيرة وعديدة، وكانت قرابة المائة حمام. وقد اهتم أمراء البيت المملوكي بإقامة الحمامات، فبنى الأمير تنكز حمامات كثيرة في بلاد الشام.(31)

وفي كثير من الأحيان نجد المعاصرين يفسرون تلك الكوارث والأزمات التي كانت تحل بهم في ضوء فساد الناس

وخروجهم عن طاعة الله وإسرافهم في المعاصي. لذا لجأ سلاطين المماليك في أوقات الشدة إلى إصدار الأوامر بإراقة الخمور وتحريم تعاطيها في مختلف أنحاء البلاد إظهارًا للتوبة، ولكن الملاحظ أن مفعول هذه الأوامر كان لا يستمر طويلاً، إذ لا يلبث أن يعود الناس إلى سابق وضعهم "ولم ينتهوا عما هم فيه".(32)

كما قامت الدولة بعدة إجراءات لمنع مظاهر الفساد والفاحشة المنتشرة في المجتمع، فقد صادر السلطان بيبرس (1260 – 1277م/ 658 – 676هـ) أموال ومعدات أصحاب الخانات سنة 665هـ لمحاربة الفاحشة ومنع البغاء. كذلك كان من جملة الضرائب التي ألغاها الناصر محمد (1310 – 1341م/ 709 – 741هـ)، ضريبة حقوق القينات سنة 715هـ، وهي ما يجمع من "الفواحش والمنكرات"، والضريبة المقررة على كل جارية أو عبد حين نزولهم بالخانات لعمل الفاحشة.(33) وقد أبطل السلطان المنصور علاء الدين علي بن شعبان (1377 – 1381م/ 778 – 783هـ) ضمان المغاني سنة 782هـ من حماة، والكرك. وحدث أن الأمير الكبير برقوق (1382 – 1389م/ 784 – 791هـ) قد أمر بإبطال ضمان المغاني في نواح عديدة من مصر والشام، كمدن حماة والكرك والشوبك.(34)

ثالثًا: المجابهة:

وتشمل تسيير عملية المجابهة بالشكل الذي يمكن من التحكم في المتغيرات المتسارعة المتصلة بالكارثة وتقليص أضرارها، وتشكل هذه المرحلة كل النشاطات المتصلة بالإنقاذ، وإجلاء المواطنين من بعض المواقع، والتعبئة الشعبية، والعون الغذائي والطبي.(35)

في زمن الطاعون، كان على المماليك الغرباء بطبيعة الحال أن يتخذوا قرارات فردية عن كيفية التعامل مع المرض. فقد جرت عادة سلاطين المماليك عند تفشي الطاعون في البلاد أن يخرجوا بعيدًا عن العاصمة طلبًا للنجاة، فيقصدون سرياقوس أو غيرها من المواضع؛ ولكنهم مع ذلك لم يسلموا أحيانًا من الأذى.(36) ومع ذلك قرر معظمهم في السنوات الأخيرة أن من الأفضل لهم البقاء في القلعة للدفاع عن مصالحهم ضد المماليك المنافسين، وربما لم يكن البقاء بالفكرة الجيدة؛ فقد لاحظ المعاصرون وفيات مرتفعة من الطاعون بدرجات غير عادية بين نزلاء القلعة.(37)

وفي سنة (1348م/ 749هـ) عندما تفشى الطاعون ببلاد الشام، يتضح لنا من خلال المصادر التاريخية أن حدة تفشي الطاعون في هذه السنة أثرت في مدينة دمشق بشكل كبير جدًا في تراجع صناعة الملابس النسائية، وركودها في الأسواق وخاصةً ذات الأكمام الطوال والعراض، والأقبية الصغار، والملابس الحريرية، والمزركشة. ويبدو أن ذلك كان نتيجة لصدور المرسوم السلطاني من قبل السلطان الناصر حسن بن قلاوون، الذي منع النساء من الخروج إلى الشوارع والأماكن العامة بمثل هذه الملابس؛ اجتهادًا منه بأن خروجهن بهذه الملابس أثر في فساد الأخلاق وانحطاط القيم في المجتمع، وجاء هذا الطاعون عقابًا من الله على هذه التصرفات وعلى أثر ذلك انحطت أسعارها لعزوف الناس عن شرائها تخوفًا من التعرض لعقوبة المرسوم الذي صدر عن السلطان، والملفت للنظر أن ذلك بقي مستمرًا حتى حلت سنة (1350م/ 751هـ).(38)

ولما حدث طاعون سنة (1513م/ 919هـ) في بلاد الشام ومصر، أصدرت الدولة أوامر بمنع بيع النبيذ والحشيش والبوزة، ومنع النساء الساقطات من فعل الفاحشة.(39) وأصدرت الدولة أوامر بإبطال جميع الضرائب والمكوس

المفروضة وخاصة ضريبة المشاهرة.(40) وجلس السلطان لاستقبال شكاوي المواطنين من أجل رفع الظلم عنهم، وقام بإطلاق مجموعة كبيرة من المساجين.(41) وأمرت الدولة القضاة والأمراء وسائر الموظفين بمنع الظلم في القضاء بين الخصوم.(42) ووجهت الدولة الناس إلى التوبة والإنابة إلى الله عز وجل لرفع هذه الوباء عن البلاد، وأمرت الناس بصيام ثلاث أيام رجاء أن يرفع الله هذا الوباء.(43)

كان للدولة دور كبير في تغسيل وتكفين وتجهيز ودفن مَنْ مات في هذه الأوبئة والطواعين، وذلك عبر إقامة أماكن عدة تُعنى بهذا الأمر؛ ومن ذلك لما حدث وباء سنة (1348م/ 749هـ) في بلاد الشام ومصر، قامت الدولة في بلاد الشام بإصدار أوامر تتضمن منع ضمان(44) النعوش والمغسلين والحمالين، وأوقفت نعوش كثيرة في أرجاء البلاد لتسهيل نقل الموتى.(45) ولما حدث طاعون سنة (1513م/ 919هـ) في مصر وبلاد الشام، قامت الدولة بفتح أماكن لتغسيل الموتى وتكفينهم.(46)

وتجدر الإشارة إلى؛ أن حدوث الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ترك آثارًا بالغة في الحياة الاجتماعية بشكل واضح، ولاسيما ظاهرة التسول التي كانت تزداد في بلاد الشام مع حدوث الكوارث الطبيعية، وتحديدًا في الطبقات الشعبية: كالفقراء والحرافيش. ويتضح من خلال المصادر التاريخية أن تفشى الطاعون في بلاد الشام سنة (1374م/ 776هـ) أدى إلى كثرة أعداد المتسولين في المدن الشامية، مما أثر في انعدام الأمن وحدوث الفوضى، ودفع السلطان الأشرف شعبان (1363 – 1377م/ 764 – 778هـ) إلى إصدار مرسوم للأمراء، والأغنياء، والتجار، بتوزيع الفقراء، والحرافيش، والمتسولين، فيما بينهم لإطعامهم، وأمر النواب بصلب مَنْ يجدوه يشحذ من الحرافيش بعد ذلك،(47) ويبدو أن صدور المرسوم السلطاني بصلب المتسولين كان بدافع القضاء على ظاهرة التسول المتزايدة، وتوجيه المتسولين نحو العمل الشريف.(48)

وهناك بعض الاعتبارات الهامة التي لها تأثير مباشر في كفاءة وفعالية مرحلة المجابهة وهي:

1/3- الإعلام والتوجيه:

وهي أولوية أساسية في مرحلة مجابهة الكارثة، وتنبني هذه الأهمية على ضرورة أن يكون الرأي العام والسكان على معرفة ودراية كاملة بما حدث وبما يهددهم من مخاطر، وتوجيه ساكني المنطقة المتأثرة بالكارثة للتدابير الوقائية التي ينبغي أن يتخذوها أو بالكيفية التي ينبغي أن يتعاونوا فيها مع السلطات المختصة لإجلائهم عن دائرة الخطر.(49)

فقد وجهت الدولة المملوكية الناس إلى إعلان التوبة والإنابة إلى الله عز وجل، وترك فعل المعاصي، وفعل الطاعات والقربات، رغبةً في أن يرفع الله البلاء عن البلاد والعباد. ومن ذلك لما حدث وباء سنة (1348م/ 749هـ) في بلاد الشام ومصر، بدأ أئمة المساجد في بلاد الشام بالقنوت في الصلوات، والدعاء برفع الوباء من يوم الجمعة 6 من شهر(ربيع الثاني/ يونيو)،(50) ونُدب الناس لصيام ثلاث أيام، وأن يتضرعوا إلى الله برفع الوباء، ففي يوم الاثنين (23 ربيع الثاني/ يونيو) "نُودي في البلد أن يصوم الناس ثلاث أيام، وأن يخرجوا في اليوم الرابع وهو يوم الجمعة إلى مسجد القدم يتضرعون إلى الله ويسألونه رفع الوباء عنهم، فصام أكثر الناس ونام الناس في الجامع وأحيوا الليل كما يفعلون في شهر رمضان، فلما أصبح الناس يوم الجمعة السابع والعشرين منه خرج الناس يوم الجمعة من كل فج عميق، واليهود والنصارى والسامرة، والشيوخ والعجائز والصبيان، والفقراء والأمراء والكبراء والقضاة من بعد صلاة الصبح، فما زالوا هنالك يدعون الله حتى تعالى النهار جدًا.(51)

وقد شهد ابن بطوطة (1304 – 1377م/ 703 – 779هـ) تلك اللوحة المعبرة عن التوبة والرجوع إلى الخالق أثناء مروره بدمشق سنة (1348م/ 749هـ) فقال: أن الدمشقيين "باتوا ليلة الجمعة ما بين مصل وذاكر وداع، ثم صلوا الصبح، وخرجوا جميعًا على أقدامهم، وبأيديهم المصاحف والأمراء حفاة. وخرج جميع أهل البلد ذكورًا وإناثًا صغارًا وكبارًا، وخرج اليهود بتوراتهم، والنصارى بأنجيلهم، ومعهم النساء والولدان، وجميعهم باكون متضرعون إلى الله بكتبه وأنبيائه، أن يزيل عنهم هذا الوباء ويحميهم منه، وكذا فعل الناس في الكرك والقدس ونذروا النذور لهذه الغاية".(52)

وعندما فشا الطاعون في بلاد الشام سنة (1437م/ 841هـ) أظهر أهلها التوبة، فأغلقوا حانات الخمارين، ومنعوا البغايا من ارتكاب الفاحشة، فتقلص انتشار الوباء عندهم، كما تناقصت أعداد الوفيات بينهم. وعندما انتشر الطاعون في دمشق (1513م/ 919هـ) واشتد أمره فيها، أعلن أهلها التوبة، وذلك بصيام ثلاث أيام، والخروج إلى الصحراء، وزيارة المقابر، كما نودي في دمشق بأن لا يفتح أحد دكانه باستثناء الخبازين والطباخين، وأن يخرج العلماء والصالحون بالتهليل والتكبير إلى المزة (قرية كبيرة غرب دمشق) لعل الله يخفف عنهم هذا الوباء.(53)

وقد أدت الأوضاع الصعبة التي عانى منها سكان بلاد الشام بسبب حدوث الكوارث الطبيعية، وخاصةً تفشي الطواعين إلى ترك آثارٍ على نفسية السكان والمرضى، فأصبحوا يتشبثون بدجل وخرافات المنجمين طلبًا للشفاء من المرض أولاً، وتغيير أوضاعهم السيئة ثانيًا، واستغل المنجمون المرض وظروف السكان لتحقيق أهدافهم. (55) فعندما انتشر في دمشق طاعون سنة (1513م/ 919هـ) وزاد عدد الوفيات في صفوف الأطفال، زعم شخص يدعى "ابن حمزة" أنه رأى الرسول (ﷺ) في منامه، وطلب منه أن يدعو الناس إلى زيارة قبور الصالحين، ومقامات الأولياء، ولقيت دعوته صدى كبيرًا من قبل نساء المدينة، وأقبلن بأطفالهن بأعداد كبيرة على زيارة القبور والمقامات طلبًا للشفاء،(55) إلا أن قاضي الشافعية لم يرض عن هذه التصرفات، ونصح مَنْ يذهب إلى تلك الأماكن أن يستبدل ذلك الأمر بالمواظبة على الصيام، وعمل الخير والإحسان، وقال في ذلك: "قد كثر الظلم فلو أبطلتموه كان حسنًا".(56)

2/3- المجموعات التطوعية:

إن كفاءة وفعالية الأجهزة الرسمية المعنية بمجابهة الكارثة، تزداد قدرة واتساعًا متى استطاعت أن تستقطب وتستوعب جهود المجموعات التطوعية وتجعلها امتدادًا إيجابيًا متسقًا مع نشاطاتها. ولعل من أبرز سمات المجموعات التطوعية، بحكم أنها لا تقوم على نظم هيكلية محددة ولا تخضع لإجراءات تنظيمية مقيدة، أنها تحظى بدرجة عالية من المرونة، الأمر الذي يعين في تشكيلها وتوظيفها بالقدر الذي يدعم النشاطات الرسمية ولا يتعارض معها.(57)

فقد عمد بعض النواب والميسورون من الأغنياء وأهل الخير إلى إنشاء البِيْمَارِستَانَات التي لا تكاد تخلو مدينة من مدن الشام من بيمارستان خُصصت بعض أقسامها لمدارات المصابين بالأوبئة ومعالجتهم، ووجد في بعضها قاعة لمرضى الأوبئة والطواعين والحمّيات.(58)

لقد كانت الوفيات على نحو جماعي في أثناء انتشار الأوبئة والطواعين وترك الجثث التي لا تجد مَنْ يواريها التراب على الأرض والطرقات مدة ثلاث أيام؛ واستجابةً لتعاليم الدين الإسلامي الحنيف التي تستوجب الإسراع في تجهيز الميت ودفنه حفاظًا على حرمة الإنسان وكرامته من التغيير والتعفن، إذ لا ينبغي أن تبقى الجثث بين ظهراني أهلها من غير دفن؛ فقد عمد الخيرون من الحكام والأثرياء إلى إنشاء مؤسسات اجتماعية تهتم بتغسيل الأموات من الفقراء وتكفينهم أُطلق عليها مغاسل أو حوانيت الموتى، فكان الموتى من فقراء المسلمين يحملون إلى تلك المغاسل

ليغسّلوا فيها ويكفنون وفقًا للشريعة الإسلامية من ريع الوقف المخصص لهذه الحوانيت أو المغاسل.[59] وفي المقابل كان المقتدرون يوكلون إلى أصحاب المغاسل وحفاري القبور وأصحاب الحوانيت الخاصة القيام بترتيبات الغسل والدفن.[60] وقد ترك موت الحرفيين والمهنيين الذين يعملون في حفر القبور من جراء تفشي الطواعين آثارًا في توفير القبور، مما اضطر السكان إلى حفر الحفر الكبيرة، وإلقاء الموتى بأعداد كبيرة فوق بعضهم البعض من أجل التخلص من جثثهم حتى لا تجيف، ومثال ذلك ما حدث سنة (1374م/ 776هـ) عندما تفشى الطاعون في مدينة حلب.[61] إلا أنه ونظرًا لاستمرار الطاعون في الأعوام (١٤٩١م/ ٧٩٧هـ)، (١٤٩٢م/ ٧٩٨هـ) ولكثرة الموتى باشر الكثير من الناس اللجوء إلى حوانيت الأوقاف، [62] أو غسل موتاهم بأنفسهم وتكفينهم، وكثر المتطوعون لإخراج الموتى، وفتحت الأماكن القديمة المعدة للدفن، وجمعت عظام مَنْ مات قديمًا من أجل إيجاد أماكن لموارة الجثث.[63]

3/3- الخدمات الطبية:

طبيعة ظروف مجابهة الكارثة تستوجب من الأطباء ومَنْ يعاونهم تقديم خدماتهم على نحو يختلف، بل قد يتناقض أحيانًا، مع تدريبهم وخبراتهم المهنية، فهم مطالبون من جانب بتقدير حالات الجرحى وتقديم العلاج بسرعة، وهو وضع يختلف عن الظروف العادية، حيث تخضع كل حالة لتشخيص متأن، ليس ذلك فحسب، بل هم مواجهون بالنظر في حالات كثيرة ومتنوعة في ذات الوقت.

فعلى أثر ازدياد حدة الطاعون في بلاد الشام سنة (1429م/ 833 هـ) كثرت الإصابات في صفوف السكان، وتوالت نصائح الأطباء، وإرشاداتهم للمرضى بضرورة تناول السكر المطحون والمخلوط بمسحوق الرمان الحامض للتخفيف من حدة الآلام، وبذلك غشي السكان بصيص أمل في إمكانية الشفاء، فأقبلوا على تناوله بكميات كبيرة.[64]

ومن الخدمات الاجتماعية التي كانت تقدمها البِيْمَارِسْتَانَات غسل وتكفين مَنْ يموت فيه من المرضى ممَنْ لا يجدون مَنْ يشرف على تجهيزهم ودفنهم، وتتجلى هذه الخدمة الاجتماعية للبيمارستان بوضوح في أثناء فترة انتشار الأوبئة والطواعين، بالإضافة إلى الخدمات الطبية والعلاجية.

رابعًا: إعادة التوازن:

مرحلة إعادة التوازن تعني العودة إلى الوضع الطبيعي كالوضع قبل وقوع الكارثة أو على نحو أفضل، وينبغي أن تكون هذه المرحلة منظمة ومحددة ومحسوبة. إن القضايا والقرارات المركزية فيها هي قضايا معيارية تنبني على خيارات تعطى بدرجات متفاوتة التأكيد على استعادة التوازن إلى وضعه العادي بأسرع فرصة ممكنة، وتقليص الاحتمالات المستقبلية لقابلية التعرض للخطر، وتحقيق العدالة الاجتماعية والتعويض المناسب.[65]

والحق أن المصادر لا تمدنا بمعلومات كافية حول هذه المرحلة، إلا أن الدولة قامت بإصدار عدة قوانين لمنع التدهور الاقتصادي الحادث بعد حدوث الأوبئة والطواعين ومن ذلك؛ لما حدث وباء سنة (1348م/ 749هـ) في بلاد الشام ومصر، هلك عدد كبير من الفلاحين في هذا الوباء، فقامت الدولة بالحد من حرية الفلاحين ومنعت انتقالهم من أرض إلى أخرى إلا بعد مرور ثلاث سنوات، وإن فعل ذلك وتركها قبل مرور السنوات الثلاث أُعيد إليها بالقوة.[66] ونظرًا لارتفاع الأجور لقلة الصُناع والعمال بعد هذا الطاعون، استخدمت الدولة القوة لإرغام العمال على

القبول بأجور معقولة غير باهظة، [67] واستخدمت القوة أيضًا لإجبار مَنْ بقي على قيد الحياة ولم يعد لمزاولة مهنته على العودة لمزاولتها. [68]

خاتمة:

يُعَدّ العصر المملوكي أحد العصور الإسلامية الزاهرة حضاريًا والناهضة علميًا وثقافيًا، إلا أن ذلك العصر شهد انتشارًا كبيرًا للأمراض والأوبئة والمجاعات ووقوع الكوارث الطبيعية والحروب، ولم تكن الدولة سلبية إزاء ذلك، فقد كان شعور سلاطين المماليك واضحًا بحاجة الناس الماسَّة إلى العلاج، ومعايشتهم لأوضاعهم الصحية والاجتماعية، وهذا ما أظهرته صفحات الدراسة من اهتمام القيادات بكل ما يتصل بحياة الناس وخدماتهم.

الخلاصة

إن التصور المنهجي المتكامل لإدارة الكوارث البيولوجية خلال العصر المملوكي في بلاد الشام في إطار هذه المراحل الأربع: تلطيف أو تخفيف حدة الكارثة، والاستعداد والتحضير، والمجابهة، وإعادة التوازن إلى وضعه الطبيعي، يبرز إلى موقع الصدارة حقائق جوهرية:

أولاً: لقد تحملت الدولة المملوكية مسئولية معالجة الكوارث الطبيعية، فوضعت كل الخطط والأساليب المتاحة والممكنة للسيطرة على هذه الكوارث خاصةً البيولوجية منها، ف لم تدخر الدولة وسعًا في إقامة المنشآت العلاجية الثابتة في الحواضر والمدن الكبرى، ثم خصصت نوعًا من المنشآت العلاجية المتنقلة، وذلك لخدمة البلاد والمناطق البعيدة والتي لا يستطيع أهلها الوصول إلى البيْمَارِستَانَات الثابتة.

ثانيًا: اتخذت الدولة الخطوات الوقائية لمنع انتشار الأوبئة والطواعين؛ كحملات التنظيف، وتشييد الحمامات، وإصدار الأوامر بإغلاق أماكن شرب الخمور، ومعاقبة مقترفي الآثام، وإبطال الضرائب المقررة على مرتكبي الفواحش. وبذلك كانت إجراءات الدولة المملوكية ضمن منظومة إدارة الكوارث لاستشراف المستقبل بهدف الحيلولة دون وقوع كارثة الطاعون ما كان ذلك ممكنًا، أو على أقل تقدير تخفيف حدة خطرها على حياة الإنسان.

ثالثًا: إن إدارة الكوارث بفعالية لا يمكن أن تتحقق بالانكفاء على الجهود الرسمية وحدها، إنما بتجاوز ذلك وتنمية العلاقات المؤسسية مع كل فعاليات البيئة ذات العلاقة لتأمين التكامل في الجهود وتحقيق الدرجة المطلوبة من الوعي الاجتماعي للبعد عن مواطن الخطر أو بيئة الكارثة، وقد تحقق ذلك في العصر المملوكي، حيث أبدى السكان في المدن والقرى الشامية اهتمامًا كبيرًا إلى جانب الدولة في مجابهة الكوارث الطبيعة ببناء البيمارستانات والمؤسسات الاجتماعية لمساعدة الفقراء، والتعاون في حفر القبور وغسل الموتى وتكفينهم.

الهوامش:

(1) أشرف صالح محمد، "الانحراف الاجتماعي خلال العصر المملوكي: سلوك العامة نموذجًا 1250 – 1517".- مجلة التراث والحضارة (جامعة قناة السويس).- المجلد (4)، العدد (4) نوفمبر 2014. ص 294.

(2) راجع: فيصل عبد الله بني حمد، "أثر الكوارث الطبيعية على الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر المملوكي".- حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية – الحولية (28)/ 2008. ص13 – 116.

(3) عن الآثار السياسية للكوارث الطبيعية راجع: محمد حمزة محمد صلاح، الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر (1097 – 1517م)/ إشراف: خالد يونس الخالدي.– غزة: الجامعة الإسلامية، 2009. ص338 – 343. (أطروحة ماجستير)

(4) عن آثار الكوارث الطبيعية في الناحية العمرانية راجع: نافذ محمد عبد ربه الشوامرة، الكوارث الطبيعية وآثارها في بلاد الشام في العصر المملوكي (1250 – 1517م)/ أطروحة ماجستير إشراف: شوكت رمضان حجة.– فلسطين: جامعة الخليل، 2012. ص168 – 182.

(5) فتحي سالم حميدي، "وباء الطاعون وأثره على مدينة القاهرة في العصر المملوكي".– مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية (جامعة الموصل).– المجلد (12)، العدد (4) 2013. ص 456.

(6) جمال الدين أبي المحاسن يوسف ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.– القاهرة: (د.ن)، 1963. (ج10/ ص 198 – 199).

(7) حسن أبشر الطيب، إدارة الكوارث.– الخرطوم: شركة ميدلايت المحدودة، 1992. ص 7، ص 11، ص 33.

(8) الطيب، إدارة الكوارث، 1992. ص125.

(9) محمد نصر مهنا، إدارة الأزمات والكوارث: دراسة تحليلية.– الإسكندرية: المكتب الجامعي الحديث، 2008.ص229.

(10) R.W. Perry and A.H. Mushkatel, Disaster Management: Warning, Response and Community Relocation.- Westport: Conn. Quorum Books, 1984. P.155 .

(11) مؤمن أنيس البابا، البِيْمَارِستَانَات الإسلامية حتى نهاية الخلافة العباسية (622 – 1258م)/ إشراف: رياض مصطفى شاهين.– غزة: الجامعة الإسلامية، 2009. ص 31 (أطروحة ماجستير)

(12) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك/ تحقيق: محمد عبد القادر عطا.– بيروت: دار الكتب العلمية، 1997. (ج6/ ص491). ابن الصيرفي: الخطيب الجوهري علي بن داود، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان/ تحقيق: حسن حبشي.– القاهرة: مطبعة دار الكتاب، 1970. (ج4/ ص189).

(13) ابن طولون: شمس الدين محمد بن علي ابن طولون (ت. 953هـ/ 1546م)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان/ تحقيق: محمد مصطفى.– القاهرة: المؤسسة العامة للتأليف والترجمة، 1962. (ج1/ ص192)

(14) العليمي: مجير الدين الحنبلي، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل.–عمان: مكتبة دنديس، 1999. (ج2/ ص79).

(15) النويري: أحمد بن عبد الوهاب (ت. 1333م/ 733هـ)، نهاية الأرب في فنون الأدب/ تحقيق: نجيب مصطفى فواز، حكمت كشلي فواز.– بيروت: دار الكتب العلمية، 2004. (ج31/ ص 71)

(16) ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي (773 – 852هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة/ ضبطه وصححه: عبد الوارث محمد علي.– بيروت: دار الكتب العلمية، 1997. (ج1/ ص309).

(17) المقريزي، السلوك، ج3/ ص 422.

(18) راجع: ابن حجر، الدرر، ج1/ ص 205 – 206.

(19) ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي (ت. 774هـ)، البداية والنهاية/ تحقيق: علي شيري.– بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1988. (ج14/ ص295).

(20) ابن حجر، الدرر، ج4/ ص 86.

(21) غادة بنت عبد الله بن عبد الرحمن القبلان، البِيْمَارِستَانَات: أوضاعها وآثارها في العصر المملوكي (دراسة حضارية).– الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 2006. ص 10 – 11. (أطروحة ماجستير)

(22) العيني: بدر الدين محمود (ت. 1451م/ 855هـ)، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ططر/ تحقيق: هانس ارنست.– القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1962. ص 36.

(23) ماهر عبد القادر محمد، مقدمة في تاريخ الطب العربي.– بيروت: دار العلوم العربية للطباعة والنشر، 1988. ص253.

(24) هاشم يحيى الملاح، الحسبة في الحضارة الإسلامية: دراسة تاريخية فقهية في الرقابة على الجودة الشاملة.– القاهرة: المنظمة العربية للتنمية الإدارية، 2007. ص3 – 53.

(25) Ian I. Mitroff, Paul Shrivastava and Firdaus E. Udwadia, Effective Crisis Management, Academy of Management Executive, No. (4) November 1987, P. 291.

(26) المقريزي، السلوك، ج2/ ص 87.

(27) المقريزي، السلوك، ج3/ ص 102.

(28) الصفدي: خليل بن أيبك (ت. 764هـ/ 1363م)، أعيان العصر وأعوان النصر/ تحقيق: علي أبو زيد، وخليل أبو عمشه.– بيروت: دار الفكر المعاصر، 1998. (ج2/ ص 120)

(29) ابن الجزري: محمد بن إبراهيم (ت. 738هـ/ 1338م)، تاريخ حوادث الزمان ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه، المعروف بـ "تاريخ ابن الجزري".– صيدا: المكتبة العصرية، (د.ت). (ج3/ 32).

(30) عادل محمد زيادة، الحمامات الباقية بمدينة دمشق خلال العصرين المملوكي والعثماني.– الجيزة: كلية الآثار – جامعة القاهرة، 2008. ص78 (أطروحة دكتوراه)

(31) محمد عطية أبو هويشل، الأحوال الصحية والطبية في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي (1250 – 1517م)/ إشراف: رياض مصطفى شاهين.– غزة: الجامعة الإسلامية، 2012. ص102 – 103.

(32) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام.– القاهرة: دار النهضة العربية، 1976. ص 340.

(33) ابن حبيب: الحسن بن عمر (ت. 779هـ/ 1377م)، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه/ تحقيق: محمد أمين.– القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1976. (ج2/ ص 69).

(34) البيومي إسماعيل الشربيني، مصادرة الأملاك في الدولة الإسلامية: عصر سلاطين المماليك.– القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1997. (ج2/ ص 233).

(35) السيد عليوه، إدارة الأزمات والكوارث.– القاهرة: دار الأمين للنشر والتوزيع، 2002. ص 117 – 118.

(36) يروي ابن إياس أن السلطان برسباى أصيب في طاعون (841هـ/ 1437م) فحصل له "ماليخوليا" أي ارتباك في قواه العقلية، وصار يصدر أوامر غريبة مثل نفي الكلاب إلى الجيزة، ومنع النساء من الخروج إلى الطرقات وغيرها. راجع: سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكي في مصر والشام.– القاهرة: دار النهضة العربية، 1976.ص 339 – 340.

(37) شلدون واتس، الأوبئة والتاريخ: المرض والقوة والإمبريالية/ ترجمة: أحمد محمود عبد الجواد.– القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2010. ص114.

(38) نافذ محمد عبد ربه الشوامرة، الكوارث الطبيعية وآثارها في بلاد الشام في العصر المملوكي (1250 – 1517م)/ إشراف: شوكت رمضان حجة.– فلسطين: جامعة الخليل، 2012. ص 79 – 80. (أطروحة ماجستير)

(39) ابن إياس الحنفي: (محمد بن أحمد)، بدائع الزهور في وقائع الدهور/ تحقيق: محمد مصطفى.– القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1982. (ج4/ ص303).

(40) ابن إياس، بدائع، ج4/ ص 304.

(41) ابن طولون، محمد بن علي (ت. 953هـ/ 1546م)، أعلام الورى بَمْن ولي نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى/ تحقيق: محمد أحمد دهمان.– دمشق: دار الفكر، 1984. ص 218.

(42) ابن إياس، بدائع، ج4/ ص 302.

(43) ابن الحمصي: شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر (841 – 934هـ)، حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران/ تحقيق: عُمر عبد السلام تدمري.– بيروت: المكتبة العصرية، 1999. (ج3/ ص251). ابن طولون، مفاكهة الخلان، ج1/ ص 163.

(44) الضريبة التي كانت تؤخذ من الناس لقاء تجهيز الموتى، يُنظر: محمد أحمد دهمان، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي.– دمشق: دار الفكر، 1990. ص 104.

(45) ابن كثير، البداية والنهاية، ج14/ ص 261. ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي (773 – 852هـ)، بذل الماعون في فضل الطاعون/ تحقيق: أبو إبراهيم كيلاني محمد خليفة.– الزرقاء: دار الكتب الأثرية، 1983. ص 238.

(46) ابن إياس، بدائع، ج4/ ص 301.

(47) ابن قاضي شُهْبَة: أبو بكر بن أحمد (ت. 1447م/ 851هـ)، تاريخ ابن قاضي شهبة/ تحقيق: عدنان درويش.– دمشق: المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، 1977. (ج2/ ص444)

(48) الملواني: يوسف بن الوكيل (ت. 1718م/ 1131هـ)، تحفة الأصحاب لمَنْ ملك مصر من الملوك والنواب/ تحقيق: محمد الشِشتاوي.– القاهرة: دار الآفاق العربية، 1999. ص64.

(49) حسن أبشر الطيب، إدارة الكوارث.– الخرطوم: شركة ميدلايت المحدودة، 1992. ص 95.

(50) ابن كثير، البداية والنهاية، (ج14/ ص 261). ابن حجر، بذل الماعون في فضل الطاعون، ص 238.

(51) ابن كثير، البداية، ج14/ ص 261.

(52) يوسف غوانمة، "الطاعون والجفاف وأثرهما على البيئة جنوب الشام (الأردن وفلسطين) في العصر المملوكي".– مجلة دراسات تاريخية، العدد (13) تشرين الأول، 1983. ص 81.

(53) فيصل عبد الله بني حمد، "أثر الكوارث الطبيعية على الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر المملوكي".– حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية – الحولية (28)/ 2008. ص 28.

(54) نافذ محمد عبد ربه الشوامرة، الكوارث الطبيعية وآثارها في بلاد الشام في العصر المملوكي (1250 – 1517م)/ إشراف: شوكت رمضان حجة.– فلسطين: جامعة الخليل، 2012. ص 125. (أطروحة ماجستير)

(55) ابن طولون: شمس الدين محمد بن علي ابن طولون (ت. 953هـ/ 1546م)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان/ تحقيق: محمد مصطفى.– القاهرة: المؤسسة العامة للتأليف والترجمة، 1962. (ج1/ ص307)

(56) ابن طولون، محمد بن علي (ت. 953هـ/ 1546م)، أعلام الورى بمَن ولي نائبًا من الأتراك بدمشق الشام الكبرى/ تحقيق: محمد أحمد دهمان.– دمشق: دار الفكر، 1984. ص219.

(57) الطيب، إدارة الكوارث، ص98.

(58) المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت. 1441م/ 845هـ)، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار/ تحقيق: محمد زينهم، مديحة الشرقاوي.– القاهرة: مكتبة مدبولي، 1998. (ج2/ ص 406).

(59) مبارك محمد الطراونة، "الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة 1382 – 1516م".– المجلة الأردنية للتاريخ والآثار.– المجلد (4)، العدد (3)، 2010. ص 55.

(60) ابن طولون: شمس الدين محمد بن علي ابن طولون (ت. 953هـ/ 1546م)، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان/ تحقيق: محمد مصطفى.– القاهرة: المؤسسة العامة للتأليف والترجمة، 1962. (ج1/ ص ٢٧٠)

(61) ابن العماد الحنبلي: عبد الحي بن أحمد (ت. 1678م/ 1089هـ)، شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذهب/ تحقيق: محمود الأرناؤوط.– دمشق: دار ابن كثير، 1993. (ج8/ ص 431).

(62) السخاوي: محمد بن عبد الرحمن (ت. 902هـ/ 1496م)، التبر المسبوك في ذيل السلوك.– القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، د.ت. ص 254

(63) مبارك محمد الطراونة، "الأوبئة (الطواعين) وآثارها الاجتماعية في بلاد الشام في عصر المماليك الجراكسة 1382 – 1516م".– المجلة الأردنية للتاريخ والآثار.– المجلد (4)، العدد (3)، 2010. ص 56.

(64) ابن الصيرفي: علي بن داود (ت. 1494م/ 900هـ)، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ أهل الزمان/ تحقيق: حسن حبشي.– القاهرة: دار الكتب، 1973. (ج3/ ص 188)

(65) J. Eugene Haas, Robert W. Kates and Martyn J. Bowden, Reconstruction Following Disaster.- Cambridge: MIT Press, 1977. P. xxvi .

(66) محمد حمزة محمد صلاح، الكوارث الطبيعية في بلاد الشام ومصر (1097 – 1517م)/ أطروحة ماجستيرإشراف: خالد يونس الخالدي.– غزة: الجامعة الإسلامية، 2009. ص174

(67) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10/ ص 210.

(68) المقريزي، السلوك، ج4/ ص 90.